في الأدب المقارن

الطير والحيوان

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

وحدة الأحياء واشتراكهم في صفات ترفعهم جميعاً عن الجماد وتميزهم بالشعور بالغبطة والألم . كل هاتيك حقائق من الموضوع بحيث اهتدى إليها الأولون قبل أن يحققها العلم الحديث ويفصل دقائقها وخوافيها ؛ وتنازع الأحياء البقاء ، وعدوان أقواها على أضعفها وفوز القوي بالغلب والبقاء ، هذه كذلك أمور واضحة رأى المتقدمون مظاهرها وظهرت لمحاتها في آدابهم ؛ وقد كان موقف الانسان منذ عصوره البدائية من الحيوان غريباً لا يخلو من تناقض وطرافة : كان في أول أمره ينازع السباع البقاء ويفترسها ليتغذى بها ، ثم استأنس بعضها وسخره في أعماله تسخير العبيد ، واتخذ بعضها للزينة والمسرة ثم عاد فقدس بعض عبيده أولئك ورفعهم إلى مصاف الآلهة ، لأنهم يدرّون على حياته خيراً وبركة ، بينما ظل يتلهى باقتناص أوابد الوحش . ويجرب بأسه وفروسيته باصطياد حشاشاتها ، والتفريق بين الأمهات منها وبين الصغار

واخترع خيال الانسان في تلك العهود البعيدة عجائب الحيوان وغرائب الأطيار ومخيف الكائنات ، كما توهم البابليون وحشاً هائلا يقذف الماء من فيه فيغمر السهل والجبل ، وكما تخيل الاغريق الجياد الطائرة والسباع ذوات الرؤوس المتعددة وخلائق شعور رؤسها أفاع باغية ، وتوهموا الأبطال المغامرين منطلقين لقتال تلك السباع والافاعي ، وكما تصور العرب الغول والعنقاء ، وزعم السندباد أنه سافر على جناح طائر ميمون يدعى الرخ ، وكما توهم أوائل الانجليز سبعاً ضارياً قد ألقى الرعب في مملكة بأسرها ، حتى صارعه فصرعه الأمير بيولف في الملحمة المسماة باسمه ؛ ولم تكن كل هذه السباع الوهمية التي هذى بذكرها الانسان في عهوده الأولى ، إلا صدى لذكريات الوحوش الهائلة التي كانت تقطن البر والبحر في غابر الأزمان ، وكان الانسان المتوحش على فزع منها وحذر دائبين

فلما بلغ الانسان طوراً من الحضارة أرقى ، أنزل تلك العجاوات التي كان ألهها من محاريب عبادته ، ونبذ تلك الخرافات وما بها من سباع وهمية ، وعلم العرب أن الغول والعنقاء مستحيلان استحالة الخل الوفي ، وظهر من المثقفين ذوي النفوس الرقيقة من انتهوا ونهوا عن قتل الحيوان والتغذي بلحمه والتلهي بصيده وتعذيبه وسجنه كأبي العلاء الحكيم العربي ، وكالمصور الايطالي ليوناردو دافنشي ، الذي كان يبتاع الطيور الحبيسة ليطلقها ويشفي نفسه المتألمة برؤيتها تضرب أجنحتها ذاهبة إلى الفضاء ؛ وظهرت آثار تلك العلاقات المختلفة بين الانسان والحيوان في الآداب : ففي الأدب الاغريقي وصف لمغامرات حملة الارغونوت التي خرجت لاستخلاص فراء ثمين يحميه غول فظيع ، وفيه وصف لجماعة السيكلوب أو المردة ذوي العيون المفردة ، وما كان بين كبيرهم وبين يوليسيز من كفاح ، وفي الأدب الفرنسي قطعتان بديعتان تفيضان رحمة وجمالا ، تصور إحداهما مصرع غزال والأخرى مصرع ذئب على أيدي الصيادين

والأدب العربي حافل بذكر أنواع الطير والحيوان التي عرفها العرب في باديتهم ، كالجمل والحصان والأسد والقطاة والحمامة ، وكان من عاداتهم أن يمنحوا بعضاً منها كنايات : فأبو قيس للقرد وأبو خالد للأسد ، وكان لبعضهم أسماء في لغتهم عديدة ، وبها ضربوا الأمثال فقالوا : أهدى من قطاة وأحذر من غراب وأعدى من ظليم ، وسيروا الكنى فقالوا : جبان الكلب ومهذول الفصيل للجواد المضياف ، واستعاروا أوصافها للإنسان فقالوا : جيد كجيد الغزال وعيون كعيون الجآذر وشبهوا خوذات المقاتلين ببيض النعام ، وتشاءموا بأصوات بعض الحيوانات كالغراب والبومة ، وزجروا الطير يتفاءلون بالسارح منها ويتشاءمون بالبارح ، وأجروا الأمثال على ألسنتها كقصة الثيران الثلاثة المنسوبة إلى الامام علي ، وكالقصص التي أنطق فيها الحيوان ابن المقفع ، والمحاورات التي نحلها إياها إخوان الصفا ، واسترعت أحوال الحيوان ومسعاته انتباههم فتدبروها مليا كما في تلك الرسالة البليغة عن النمل المنسوبة إلى الامام علي أيضاً ، وفي التدبر في أحوال كثير من الطير والحيوان والهوام أفاض القرآن الكريم في شتى المواضع ، ودعا الانسان إلى التفكير فيها ، وألف الجاحظ كتابه المعروف جامعاً بين العلم والأدب

وقد أطنب أدباء العربية خاصة في ذكر الإبل ووصفها في أشعارهم ، ووصف سيرها وحنينها إلى أعطانها واستحثاثها ومناجاتها ، ولا غرو فقد كانت قوام حياة العربي في حله وترحاله ، بل كان لها أثر جليل في تطور الشعر العربي ذاته ، اذا صح ما قيل من أن أوزان الشعر اشتقت من مشياتها وتدفعها ، وهو قول وجيه ؛ وقل شأن الإبل قليلا حين تحضر العرب ، ولكن ظلت لها أهمية عظيمة ، وظلت من أهم وسائل الانتقال وحمل المتاجر برا ، وحافظ أدباء العربية على تقاليد الجاهليين من الإطناب في ذكر الإبل وتقديمه بين أيدي المديح

حتى استقلت الابل بجانب عظيم من الشعر العربي ، ومن خير أوصافها قول طرفة فى معلقته :

وإنى لأقضى الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدى
تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت وظيفا وظيفا فوق مور معبد

وأطنب أدباء العربية أيضا فى ذكر الخيل ووصفها فى أشعار الحماسة ، وما ذاك إلا لأنهم فى جاهليتهم وإسلامهم كانوا أمة جلاد وكفاح ، الخيل أول عدتهم فى القتال والذود عن حقيقتهم ، فكان أعز مكان فى الدنى لديهم ظهر سابح كما قال المتنبى ، وطالت صحبتهم الخيل واطردت ملازمة الخيل لهم ، فكأنما ولدت قياما تحتهم كما قال المتنبى أيضا ، وكأنما ولدوا على صهواتها ، ووصفوا مواقفهم فى الحروب ومواقف جيادهم ، كما فعل عنترة فى معلقته ، حيث يذكر كيف ازور حصانه من وقع القنا بلبانه . وكيف شكا إليه آلامه بعبرة وتحمحم ، وصار لكلمة الخيل أو كلمتى الخيل والرجل مغزى خاص بالحرب ، بعد أن استعملها القرآن الكريم فى تلك الآية البليغة : « وأعدوا لهم ما استطعتم من عدة ومن رباط الخيل » ، وتأنق أبو تمام والمتنبى فى وصف الخيل وسماتها وأخلاقها وزحوفها ، ومن بديع أوصافها فى العربية قول الفرزدق فى جواد أغر محجل :

فكأنما لطم الصباح جبينه فاقتص منه فخاض فى أجشائه

وأبيات أبى تمام التى يقول منها :

و أولق تحت العجاج وإنما من صحة إفراط ذاك الأولق

وقول أبى الطيب فى وصفه للمعركة التى دارت على ربى حصن الحدث:

إذا زلقت مشيتها ببطونها كما تتمشى فى الصعيد الأراقم

وفاز الأسد والذئب باهتمام أدباء العربيه ، وتركا فى الشعر العربى أوصافا شائقة وقصصا ممتعا ، من ذلك وصف بعض المقاتلة أمام أمير المؤمنين عثمان بن عفاف طلوع أحد الليوث عليهم فى جلجلة ورهبة زلزلت الأرض وخلعت قلوب الفرسان وجيادهم ؛ ومنه أيضا وصف الفرزدق للأطلس العسال الذى رأى ناره موهنا فأتاه ، فقاسمه عشاءه ، حتى امتلا الذئب فتكشر ضاحكا ، ولكن الفرزدق حين رأى نيوب الذئب بارزة لم يظن أن الذئب يبتسم ، بل جعل قائم سيفه فى يده بمكان ، وتاه على الذئب بما أنا له من قرى بدل أن يرشقه بشباة سنان ؛ أما البحترى فلم يكن بهذا المكان من الجود ، بل كان يحدث نفسه بصاحبه الذئب ، كما كان الذئب يحدث نفسه بصاحبه البحترى ، فرمى الانسان الوحش فأصماه ، ونال من لحمه قليلا ؛ كذلك يصف المتنبى فى أبيات هى من غرر الشعر العربى ملاقاة بعض ممدوحيه للأسد ، وتعفيره إياه بالسوط ؛ وهناك كذلك وصف البديع فى بعض مقاماته لمثل هذا اللقاء الرائع بين فارس مقدام وبين ملك الحيوان ، ومنه قوله على لسان الفارس :

وقلت له : يعز على أنى قتلت مناسى جلدا وقسرا
ولكن رمت شيئا لم يرمه سواك ، فلم أطق يا ليث صبرا
تحاول أن تعلمنى فرارا ، لعمر أبيك قد حاولت نكرا

ولما تحضر العرب وانتشر فى عليتهم الترف ، تأنقوا فى اتخاذ الحيوان للزينة والمتعة ، وكان الخروج للقنص من وسائل لهوهم وترويحهم عن النفس ، وكثر فى الشعر وصف تلك الأفيال التى كان الخلفاء الفاطميون يسيرونها فى مواكبهم ، والمها التى كانوا وكان غيرهم يزينون بها حظائرهم وقصورهم ، ووصف الخروج للقنص وكلاب الصيد ، وقد وصف أبو نواس فى أبيات مشهورة كأسا له قد صورت عليها مها تدريها بالقسى الفوارس ، ووصف المتنبى لبؤة مقتولة وأشبالها حولها جاثمة ، وكان قد هيء ذلك المنظر فى حفل استقبل فيه سيف الدولة سفراء قيصر ، ولابن الرومى عينية بارعة فى وصف يوم طرد تمتع به فى رفقة له ، ومن نوادر أبى دلامة أنه خرج مع الخليفة المهدى وعلى بن سليمان للصيد ، فأخطأ على الرمية وأصاب أحد كلاب الصيد فقال أبو دلامة :

قد رمى المهدى ظبياً شك بالسهم فؤاده
وعلى بن سليمان ن رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لهما : كل امرىء يأكل زاده

وكان من عادة أدباء العربية أن يمثلوا الأحوالهم بأحوال الحيوان ، ويستعيروا صفاته لمآسيهم بسبيل وصفه ، فيمثلون لحنينهم بحنين الابل إلى أعطافها ، ولوجدهم بوجد الظبية على خشفها قد صرعته نبال الصائد ، أو مزقته براثن السبع الضارى ، يصفون مصرع طفلها وافتقادها إياه وجزعها وتلددها لهلاكه ، فى أبيات كثيرة يبدأونها بقولهم : « وما ظبية . . . » أو نحو ذلك ، ويعقبون عليها بقولهم : « بأوجع منى يوم بانوا . . . » أو ما إليه ؛ كما كان من التقاليد المتبعة فى أشعار النسيب والوجد مناجاة الحمائم وسؤالها عما يشجيها ، ومقابلة شجوها بشجو الشاعر ، ووصف تهييجها لذكرياته وتجديدها لآلامه ومن محاسن ماقيل فى الحمائم قول أعرابى :

وقبلى أبكى كل من كان ذا هوى هتوف البواكى والديار البلاقع
ومن على الاطلال من كل جانب نوائح ماتخضل منها المدامع
مزبرجة الأعناق غر ظهورها محطمة بالدر خضر روائع
ترى طرراً بين الخوافى كأنها حواشى برد زينتها الوشائع
ومن قطع الياقوت صيغت عيونها خواضب بالحناء منها الأصابع

أما أشد شعراء العربية شغلا بأمر الأحياء وتأملا فى أحوالها وذكراً لها فى شعره فهو المعرى الذى بلغ من نفاذ البصر فى شؤون الحيوان وشدة الرحمة له حيا ، والانكار للؤم طباعه حينا ، وطول التأمل فيها تاملا موضوعياً لا ذاتيا ، مالم يبلغه غيره من شعراء العربية

فهو تارة يتعى على الضرغام مغادرته غابه لينازع ظبي رمل فى كناس ، وتارة يسمع للذئب بالشاة علماً بما بالذئب من داء السغب ، وتارة يبكى للحمامة البريئة يعاجلها الصقر عن نقرها وهديلها ، وطوراً يرميها بمماثلة غيرها من الحيوان فى الجور والعدوان ، وهو ينهى عن فجيعة النحل فى شهدها أو الناقة فى فصيلها فى حائنه الرصينة من لزوم مالا يلزم

لايكاد يوجد فى الأدب الانجليزى شيء من ذكر تلك الأنواع من الحيوان سالفة الذكر ، التى احتفى بها أدباء العربية أى احتفاء ، وحفل بذكرها الشعر العربى فى شتى عصوره ، فلا الجمل ولا الحصان ولا الأسد والذئب ، ولا الحمائم والظباء ، تمثل ذلك المكان الظاهر من موضوعات الأدب وتشبيهاته وكناياته وأمثاله ؛ وذلك لاختلاف البيئة الاقليمية والاجتماعية ، فتلك ضروب من الحيوان لاتكثر فى انجلترا كثرتها فى بلاد العرب ، بل لايوجد بعضها أصلا ، والانجليز كانوا جوابى بحار لارحالى صحار ، ومقاتلة على الماء أكثر منهم على البر ، فلا غرو ألا يمروا بتلك الأنواع إلا عرضا ، وأن يمثلوا أدبهم بوصف ضروب أخرى من الأحياء غير هذه

إنما يحفل الأدب الانجليزى بذكر الطيور الجميلة المغردة ، ووصفها ومناجاتها ، ووصف أغاريدها والاسترسال معها إلى آماد الخيال البعيدة والطيران معها على أجنحة الشعر ؛ فالأدب الانجليزى غنى بالشعر الطبيعى الذى قصد به الوصف الطبيعى وحده ، وهذا الوصف حافل بوصف الأطيار ، والأدب الانجليزى غنى أيضا بالوصف الطبيعى لم يقصد لذاته ، وإنما يتخلل شتى أغراض القول ؛ وهذا مملوء بذكر الطير أيضاً ، والشعر الانجليزى غنى فوق ذلك بالقصائد التى كتبت خاصة فى مناجاة الطيور وعبادة أصواتها المطربة ، ولم يخل الأدب العربى من شيء من ذلك ، ومن محاسن مافيه منه وصف الصابىء للببغاء ، وهو من غرر الشعر العربى ومنه يقول :

عدت من الأطيار ، واللسان يرهمنى بأنها إنسان
تنظر من عينين كالغصين فى النور والظلة بصاصين
تميس فى حلتها الخضراء مثل الفتاة الغادة العذراء

بيد أن الشعر الانجليزى أغزر وأحفل بتلك الآثار . ولكل من وردزورث وكيتس وشلى وتنيسون وسوينبرن قصائد فى ذلك بالغة غاية السمو العاطفى والكمال الفنى ؛ ولم يكتف الشعراء بمناجاة أطيار جزيرتهم الغريدة الكثيرة ، فلجأوا على عادتهم إلى الخرافة ، وتصور كولردج طائراً عجيبا سماه الألباتروس جلب اليمن والبركة لأصحاب الملاح القديم ، ثم جزاه هذا الأخير جزاء سنمار فقتله ، فكان ذلك سبب ضلاله وهلاك أصحابه

ومن غرر تلك الأشعار فى الانجليزية قول وردزورث : « أيها القادم السعيد ، ها أنذا أسمعك فأطرب ، أأسميك طائراً أم صوتا محلقا ؟ أنا أسمع هتافاتك المرددة وأنا مضطجع على العشب ، ويخيل إلى أنها تمر من ربوة إلى ربوة ، قريبة بعيدة فى آن واحد : ترسل أغاريدك فى الوادى المكسو بالأزهار وضياء الشمس ، فتثير فى نفسى رؤى بعيدة ، مرحبا بك يارسول الربيع ! يامن كنت إليه أستمع إذ أنا صبى بالمكتب . وطالما جعلنى هتافك هذا أتلفت فى كل ناحية باحثا فى الشجيرات والأدواح والسماء ، وطالما ضربت فى الغابات والأعشاب فى نشدانك ، وظللت أنت دائما أملا أو حبا يطول التشوق إليه ولا يرى أبداً ، وما أزال أستطيع الاستماع إليك والانبطاح فى السهل مصيخا إليك ، حتى أستعيد فى مخيلتى ذلك العهد الذهبى »

ولجون لوجان من شعراء القرن الماضى مقطوعة عذبة فى مناجاة الطائر عينه ، قد وقع فيها على بعض معانى وردزورث وتعبيراته ، وان لم يقل عنه جمالا وابتكارا ، قال : « مرحبا ياغريب الأراكة الجميل ، يارسول الربيع ، هاهى ذى السماء تعد لك مقعدك من الريف ، ويردد الغاب صدى الترحيب بك ؛ إذا مارقش الأقحوان العشب أيقنا أن سنسمع صوتك من جديد ، فهل لك نجم يهديك السبيل أو يوقت لك دورة العام ؟ أيها الزائر المطرب ، إلى معك أرحب بألوان الأزهار وأسمع الموسيقى العذبة التى ترددها الأطيار فى حواشى الخمائل ؛ ويسمع صبى المكتب صوتك المنبىء بالربيع الجديد ، وهو يطوف فى الغاب يقطف آخر زهيرات الشتاء ، فيتوقف منصتا ويقلد تغريدك ؛ أيها الطائر المطرب : إن خميلك خضراء أبدا ، وسماك أبدا صافية ، وليس فى أغاريدك شجن ولا فى عالمك شتاء ، فياليتنى أستطيع الطيران فأخف معك على جناح الحبور ، نطوف طوفتنا السنوية حول الأرض ، رفيق ربيع مستمر »

بأمثال هذه الأوصاف الطبيعية الشائقة ، والمناجاة الحارة الصادقة يحفل الشعر الانجليزى ، ومثل هذا الولع بالطيور والشغف بمناجاتها ووقف القصائد والمقطوعات على الترنم بحبها غير شائع فى الأدب العربى ؛ فالشعر العربى أحفل بذكر الحيوان ولا سيما الضروب سالفة الذكر ، والشعر الانجليزى قليل الاحتفال بها عظيم الحفاوة بالطير ؛ ولا غرو : فقد كان العرب رجال مجتمع مقبلين على أسبابه ووسائله ، يحمدون الإبل التى هى قوام حياتهم والخيل التى هى عمادهم فى معركة الحياة ، ويتمدحون بالبأس والشجاعة فيذكرون قتال الأسود وجندلة الذئاب ، وفيما عدا ذلك لم يكن لهم كبير التفات إلى الطبيعة ، ولا شديد عطف على أبنائها ، وأشعارهم فى هذا الباب لاتنم عن حب للحيوان أو شغف بحياته ؛ وكان حب الطبيعة والهيام بجمالها من أكبر مميزات الأدب الانجليزى ، والطيور أكثر تمثيلا لجمالها وحبورها من الأسود والذئاب ، فكثر فى الأدب الانجليزى وصف الطيور كما كثر وصف الأزهار والآجام والأنهار ؛ وفى شغف الأدب الانجليزى بهذه واحتفاء الأدب العربى بتلك رمز وبيان للصبغة الاجتماعية التى تربن على الأدب العربى ، والنزعة الطبيعية التى تتجلى فى الأدب الانجليزى

فتحى أبو السعود